الفصل الثاني

تاريخ الحركة التجديدية

إلمامة تاريخية بالحركة التجديدية

حين بُعث رسول الله ﷺ إلى هذه الدنيا كانت الحياة قد أصابها الفساد والانحراف في كل مجالاتها، وكانت الدعوات السماوية السابقة في حالة احتضار وكرب شديد على أيدي أتباعها الذين لعبوا بها وشوهوها، وأساؤوا إليها أكثر من إساءة أعدائها المعلنين.

فكانت بعثته ﷺ انتصاراً للرسالات السماوية، وإنقاذاً للجماعة البشرية، وحرباً على جميع ألوان الشرك والجاهلية.

وبدأ ﷺ بدعوته فرداً واحداً غريباً في عالم مظلم مضطرب يسوده قانون الغاب وتتعاوى فيه الذئاب، ويفترس القوي فيه الضعيف، فكيف يتحرك فردٌ أعزل في مثل هذه الحال؟.. كيف يتحرك وهو يقف ضد هذا العالم كله في عقيدته وشريعته ومنهجه؟.. والمبعوث برسالة السماء لا يمكن أن يقف مهما كانت العقبات.. ومن هنا بدأ الرسول ﷺ تلك البدأة المحرقة، وليتصور كلٌ منا تلك اللحظات التي شعر الرسول ﷺ فيها بأنه النبي المختار من عند الله لإنقاذ البشرية.. أي مشاعر كانت تتحرك في قلبه العظيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؟!

رجل واحد في مكة في وسط هذه الصحراء الملتهبة الممتدة يحمل هم تغيير العالم كله من أقصاه إلى أقصاه! يا للهمم القعساء!

وبدأت تلك الرحلة الطويلة المضنية بخطوة واحدة، فأسلم أبو بكر وعلي وخديجة وبلال وزيد بن حارثة، فكان الواحد منهم يعد أحياناً ربع الإسلام أو خمس الإسلام!

ولم تمض فترة وجيزة حتى أُمر ﷺ بمخاطبة قريش علناً بالدعوة، وخاصة عشيرته الأقربين، وهنا تأخذ الدعوة خطاً جديداً لا يصبر عليه إلا أشداء الرجال، فيجهر ﷺ بدعوته أمام الملأ، ومن هذا الموقف بدأت الحرب الضارية تشن ضده وضد أتباعه: حربٌ سلاحها كل سلاح، سلاح الدعاية، سلاح التهديد، سلاح الضرب سلاح التجويع، سلاح المقاطعة، سلاح السخرية اللاذعة، وبدأت هذه القلة تمارس الصبر الجميل أمام حرب شعواء لا يهدأ لها أوار ولا يقرُّ لها قرار.

ولكن الحق لا بد أن يجد آذاناً صاغية حتى في أحط البيئات وأفسد المجتمعات.. فها هي دعوة الإسلام المحصورة في بعض بيوتات مكة تستقطب فرداً من هنا وفرداً من هناك، ممن لم تصرفهم الدعايات المضللة المغرضة، حتى تكاثر الأتباع، وتجاوزت الدعوة نطاق مكة بصورةٍ فردية.

ومع تكاثر الأتباع كان القرشيون يشعرون بالخطر الحقيقي من وراء هذه الدعوة فيزدادون في عدوانهم وطغيانهم، ويسعون إلى إيقاف هذا المد أوحصره في أضيق نطاق.

حتى كان إسلام الأنصار وبيعة العقبة الأولى ثم الثانية، فكان هذا أول انطلاق حقيقي خارج مكة، وبه أخذت الدعوة مدى أوسع وانعتقت من سلطة مكة فلم يعد بإمكانها القضاء عليها.

ولكنها كانت تعمل للحيلولة دون قائد هذه الدعوة ـ عليه صلوات الله وسلامه أبداً أبداً ـ وبين أن يلحق بهؤلاء المدنيين بحيث يشكل القوة التي تخافها قريش وتخشاها إذا انطلق ليمارس دعوته بدون قيود ولا معوقاتٍ تذكر.

ولذلك ائتمرت عليه لتمنع هجرته حتى خططت لقتله والخلاص منه، وهذا يدل على حدة شعور القرشيين بالخطر المحدق، وإلا فلم يكن قتله ـ عليه السلام ـ بالأمر اليسير، وربما كان يؤدي إلى حرب أهلية طاحنة.

ولكن الله ـ تعالى ـ كان يحفظه ﷺ، وقد كتب له أن يؤدي دوره في المدينة المنورة الزهراء، فيسبق ـ عليه الصلاة والسلام ـ تخطيطهم، ويخرج ومعه بعض أتباعه.. وبهذا يفلت الزمام من قريش وتصبح معركتها معه ﷺ في ميادين القتال فحسب.

وفي المدينة ينشط المسلمون في نشر الإسلام بين أهلها نشاطاً كبيراً، ويشيع وجوده ﷺ بينهم جواً قوياً من الثقة والاطمئنان والحماس، حتى يدخل في الإسلام عدد كبير من الأوس والخزرج، بعضهم من علية القوم وكبرائهم.

وتبدأ المؤسسات اللازمة تتكون شيئاً فشيئاً: المسجد وهو مدرسة للتوجيه والتربية ثم الجيش.. وهكذا.. خطوات جبارة حقاً.. وكيف لا تكون كذلك وهي نقلة نوعية بل قفزة من مرحلة التضييق والاضطهاد في مكة التي كان المسلمون غير مأذونين فيها برد العدوان ولا قادرين، إلى مرحلة بناء الدولة بأجهزتها الكبيرة مع الاستعداد للجهاد ومنازلة الأعداء المعتدين.

وظلت الدولة الفتية تنازل أعداءها بجندها العقائديين فتجهز عليهم واحداً بعد الآخر وتختط لنفسها طريقاً سالكة عبر المصاعب والمحن والآلام الجسام.

ولم يقبض الله نبيه ﷺ حتى أقر عينه بقيام دولة الإسلام، وإعزاز أهله، فكمل الدين، وتمت النعمة، وتفيأ الناس ظل الإيمان الوريف.

وحين نزلت هذه الآية: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [**المائدة**: ٣] بكى عمر بن الخطاب! فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟ قال: أبكاني أنَّا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل؛ فإنه لم يكمل شيءٍ إلا نقص! فقال: صدقت»[(١)].

ولقد كان الصحابة يعلمون أن من سنَّة الله أن هذا الوضع الذي يعيشونه في حياته ﷺ لن يدوم، فكانوا يتطلعون إلى معرفة ما يكون بعد، وإلى الموقف السليم الذي يواجهون به التغيرات المخوفة المرتقبة،

(١) تفسير الطبري، ٩/ ٥١٩، رقم الأثر: ١١٠٨٣، تحقيق: شاكر.

حتىٰ قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال ﷺ: نعم... الحديث»[1].

ولا تظن أن ثمة شكاً في أن لوفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الأثر العظيم في حياة المسلمين، فقد كان أول خلاف خطير حصل بين المسلمين في قضية كبيرة هو اختلافهم بعد وفاته ﷺ بقليل علىٰ الخليفة من بعده يوم السقيفة.

هذا ـ وكان موته ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ بعد نزول آية المائدة بواحد وثمانين يوماً! وقد كان لوفاة الخليفتين من بعده أثر آخر يدل عليه حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ حين سأله عمر عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال له: «ما لك ولها يا أمير المؤمنين؟! إن بينك وبينها باباً مغلقاً! قال: فيكسر الباب أو يفتح؟ قال: بل يكسر. قال: ذلك أحرىٰ ألا يغلق أبداً! قال قائل لحذيفة: هل كان عمر يعلم مَن الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة؛ إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال: فهبنا أن

(١) أخرجه البخاري في: ٦١ ـ كتاب المناقب، ١٥ ـ باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦٠٦، وفي ٩٢ ـ كتاب الفقه، ١١ ـ باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ رقم ٧٠٨٤، ومسلم في: ٣٣ ـ كتاب الإمارة، ١٣ ـ باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، رقم ٥١، ٥٢ (١٨٤٧)، وأحمد في المسند، ٥/ ٤٠٤، مع اختلاف يسير.

نسأل حذيفة: مَن الباب؟ فقلنا لمسروق: سَلْه. فسأله، فقال: عمر»[١].

ثم كان لانتهاء خلافة الراشدين الأربعة أثر ثالث يدل عليه قوله ﷺ: «الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون بعد ذلك الملك». قال سفينة مولىٰ رسول الله ﷺ: «أمسك خلافة أبي بكر ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ سنتين، وخلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ عشر سنين، وخلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ اثني عشر سنة، وخلافة علي ـ رضي الله عنه ـ ست سنين»[٢].

وكان لانخرام جيل الصحابة، ثم لانخرام جيل التابعين، ثم لانخرام جيل تابعي التابعين آثار أخرىٰ يدل عليها قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم... الحديث»[٣].

---

(١) رواه البخاري في: ٩ ـ كتاب المواقيت، ٤ ـ باب الصلاة كفارة، رقم ٥٢٥، ورواه مسلم في: ١ ـ كتاب الإيمان، ٦٥ ـ باب إن الإسلام بدأ غريباً، رقم ٢٣١، ٥٢ ـ كتاب الفتن، ٧ ـ باب الفتنة التي تموج كموج البحر، رقم ٢٦، ورواه الترمذي في: ٣٤ ـ كتاب الفتن، ٧١ ـ باب، رقم ٢٢٥٨، ورواه ابن ماجه في: ٣٦ ـ كتاب الفتن، ٩ ـ باب ما يكون من الفتن، رقم ٣٩٥٥، ورواه أحمد ٥/ ٣٨٦، ٤٠١، ٤٠٥.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢١، وبنحوه أبو داود في: ٣٤ ـ كتاب السنة، ٩ ـ باب في الخلفاء، رقم ٤٦٤٦، ٤٦٤٧، والترمذي في: ٣٤ ـ كتاب الفتن، ٤٨ ـ باب ما جاء في الخلافة، رقم ٢٢٢٦.

(٣) رواه البخاري في: ٨١ ـ كتاب الرقاق، ٧ ـ باب ما يحذر من زهرة الدنيا... رقم ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ورواه مسلم في: ٤٤ ـ فضائل الصحابة، ٥٢ ـ باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم ٢١٠ ـ ٢١٦ (٢٥٣٣)، ورواه أبو داود في: ٣٤ ـ كتاب السنة، ١٠ ـ باب في فضائل أصحاب رسول الله، رقم ٤٦٥٧، ورواه الترمذي في: ٣٤ ـ=

وإلى هنا تنتهي القرون المفضلة التي شهد النبي ﷺ بخيريتها وفضلها، وصار ما سارت عليه من العقائد والأخلاق بل والأحكام هو الهدي الصحيح الذي لا يسع مؤمناً من المؤمنين أن يخالفه، وصار لزاماً على كل مؤمن أن يحبهم بحب الله ورسوله، ويحب ما كانوا عليه من أمر الدين، ولا يرى الصلاح إلا في الرجوع إلى ما كانوا عليه؛ فإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ـ كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ.

ثم يظل الخط العام للأمة يسير تدريجياً باتجاه الضعف والنقص والبعد عما كان عليه رسول الله ﷺ كما قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرٌ منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ»(١).

= كتاب الفتن، ٤٥ ـ باب ما جاء في القرن الثالث، رقم ٢٢٢١، ٢٢٢٢، ورواه النسائي في المجتبى، كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر، ٧/ ١٧. ورواه ابن ماجه في: ١٣ ـ كتاب الأحكام، ٢٧ ـ باب كراهية الشهادة لمن لم يشهد، رقم ٢٣٦٢، وهو عنده أيضاً برقم ٢٣٦٣، بلفظ: «احفظوني في أصحابي ثم الذين يلونهم..». ورواه أحمد في المسند في مواضع كثيرة منها: ١/ ٣٧٨ ـ ٢/ ٢٢٨ ـ ٤/ ٢٦٧ ـ ٥/ ٣٥٠.

وجاء في المواضع السابقة عن عدد من الصحابة هم: عمران بن حصين، وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب، والنعمان بن بشير، وبريدة الأسلمي، رضي الله عنهم أجمعين.

(١) رواه البخاري في: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ٦ ـ باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، رقم ٧٠٦٨.

فلا تزال الأمة كلما بَعُد عهدها بنبيها في استئخار عن منهجه، هذا من حيث الجملة والعموم، ولكنه لا يعني الاطّراد الحتمي في كل عصرٍ بالنسبة للذي قبله، بل من الثابت شرعاً وواقعاً أن ثمة عصوراً تكون خيراً من التي قبلها وأفضل، وأصدق مَثَلٍ لذلك زمان المهدي ثم عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومثله عهد عمر بن العزيز ـ رحمه الله ـ.

ولذلك لا يزال الله يمن على هذه الأمة بتصديق موعود نبيه ﷺ فيها ببعثة المجددين الذين يحيون ما اندرس من أمر الدين، ويعيدون إلى الأمة حياتها الحقيقية بإعادتها إلى نهج الإسلام الصحيح.

فحين تمر فرقة على الأمة يصيبها في دينها ما يصيبها فيخرج المجدِّد ليعيدها إلى حالٍ قريب من الحال الأول، ثم تبدأ آثار المجدِّد في الزوال والتلاشي حتى لا يأتي القرن الآخر إلا والأمة قد بلغت من الضَعة والضعف أشد مما بلغت قبل حركة التجديد الأولى، فيأتي المجدِّد فيعيد الأمة إلى حالٍ قريب من حالها في عهد المجدِّد الأول. وهكذا يتلاءم خط سير الأمة المنحدر مع خط التجديد والإحياء التصاعدي.

ولا يكاد المجدِّد التالي يكون خيراً من سابقه إلا في حالات نادرة، كما في ظهور المهدي ونزول عيسى ـ عليهما السلام ـ؛ فإنهما يجددان الدين أي تجديد.

مع أن الأمة كلما امتد بها الزمن وزاد انحرافها كانت حاجتها إلى

المجدِّد الأقوىٰ أشدُّ وآكد؛ ولهذا رجحنا فيما مضىٰ أن التجديد مهمة الطائفة الناجية المنصورة، وليس مهمة فرد بعينه، وأنه إن جاز أن يقال في مجدد القرن الأول أنه عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ؛ فإن ذلك لا يجوز في غيره، مع قناعتنا التامة بظهور آحادٍ من الناس يختصهم الله بمزيد فضل من عنده، فيكون لهم من التجديد أوفىٰ نصيب.

وفي الصفحات التالية نعرض لحركات التجديد التاريخية البارزة؛ لتكون أنموذجاً يحتذىٰ للدعاة الصادقين المتطلعين إلىٰ تجديد الدين لهذه الأمة.